﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ۝١ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَوَيۡلٞ لِّلۡكَٰفِرِينَ مِنۡ عَذَابٖ شَدِيدٍ ۝٢﴾

[إبراهيم: 1 - 2]

❁ مُناسَبَةُ بدايةِ السّورةِ لِما قَبْلَها:

أُنـزل الـقـرآنُ على النّبيّ ﷺ لهداية النّاسِ بإذنِ الله

"ارْتِباطُ أوَّلِ هذه السّورَةِ بالسّورَةِ التي قَبْلَها واضِحٌ جِدًّا؛ لأنّه ذَكَرَ فيها: ﴿وَلَوۡ أَنَّ قُرۡءَانٗا﴾ ثُمَّ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ حُكۡمًا عَرَبِيّٗا﴾ [الرعد: 37] ثُمَّ: ﴿وَمَنۡ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ فَناسَبَ هذا قَوْلَهُ ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ﴾، وأيْضًا فَإنَّهُم لَمّا قالوا على سَبيلِ الاقْتِراحِ ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ﴾ [الرعد: 27] وقيلَ لَهُ: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَنۡ أَنَابَ ۝٢٧﴾ [الرعد: 27] أنْزَلَ: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ﴾ كأنه قيل: أو لم يَكْفِهِم مِنَ الْآياتِ ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ هي الضَّلالُ، إلى ﴿ٱلنُّورِ﴾ وهو الهُدَى"[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿صِرَٰطِ﴾: الصّادُ في صرط مبدلةٌ منَ السّين، والسّين والراء والطاء أصلٌ صحيحٌ واحدٌ، يدلُّ على غيبةٍ في مرٍّ وذهابٍ. من ذلك: سرطتُ الطّعامَ، إذا بلعتُه؛ لأنَّه إذا سرط غاب[2]، وخصَّه اللّغويون بالطّريق المستقيم؛ لأنَّه يَسترطُ المارَّةَ[3]. والمرادُ بالصّراط في الآيةِ هو طريقُ الإسلام الموصِلِ إلى النَّجاة عند الله تعالى؛ لأنَّه يجعلُ السّالكين فيه على استقامةٍ وقوامةٍ.

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 6/405.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سرط).
(3) الفيروزابادي، بصائر ذوي التمييز: (صرط): 3/411.

2) ﴿وَوَيْلٌ﴾: "أصلُ (الوَيل) في اللُّغَة: الهَلاك والعَذاب"[1]، و"الوَيْلُ حُلولُ الشَّرِّ. والوَيْلَةُ: الفضيحةُ، وقيل: هو تَفَجُّعٌ. ووَيَّلَه ووَيَّلَ له: أكثر له من ذكر الويلِ، وتويَّل هو: دعا بالويل لما نزل به"[2]، والويلُ "كلمةُ دُعاء بالهَلاكِ والعَذاب، وهي في الأصْل مصدرٌ لم يسْتَعْملْ لَهُ فعلٌ، يُقال: ويلٌ لزيد، وويلاً لَهُ، بالرَّفْع على الابْتِداء والنّصب بإضمار الفِعْل، وأما إذا أضيف فلَيْسَ لَهُ إلّا النّصبُ، يُقال: ويلاً لمن وقع فيه، وويل فلان أي: الخزيُ لَهُ"[3]. والمقصودُ بالويلِ في الآيةِ الوعيدُ للكافرين، بإنزال الهلاكِ والعقوبةِ فيهم يومَ القيامةِ.

❁ المَعْنى الإجْماليّ:

"هذا ﴿كِتَبٌ أَنزَلْنَهُ إِلَيْكَ﴾ يا مُحَمَّدُ، وهو القُرْآنُ العَظيمُ، الذي هو أشْرَفُ كِتابٍ أنْزَلَهُ اللّه ﷻ مِنَ السَّماءِ، على أشْرَفِ رَسولٍ بَعَثَهُ اللّه في الأرْضِ، إلى جَميعِ أهْلِها عَرَبِهِم وعَجَمِهِم، وإنَّما بَعَثْناكَ يا مُحَمَّدُ بهذا الْكِتابِ لِتُخْرِجَ النّاسَ مِمّا هُم فيهِ مِنَ الضَّلالِ والغَيِّ إلى الهُدَى والرُّشْدِ، وهو سبحانه العَزيزُ الذي لا يُمانَعُ ولا يُغالَبُ، بَلْ هو القاهِرُ لِكُلِّ ما سِواهُ، المَحْمودُ في جَميعِ أفْعالِهِ وأقْوالِهِ، وشَرْعِهِ وأمْرِهِ ونَهْيِهِ، الصّادِقُ في خَبَرِهِ المالك لكلّ شيءٍ في الكون، ووَيْلٌ لهؤلاء النّاس يَوْمَ القيامَةِ إذْ خالَفوكَ يا مُحَمَّدُ وكَذَّبوكَ"[4].

بالقرآن الكريمِ يَخرجُ النّاسُ من ظُلماتِ الكفرِ إلى نورِ الإيمانِ

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيّ:

بَراعةُ الاسْتِهلالِ بالأحرُفِ المُقطّعةِ:

إنّ اصْطفاءَ هذه الأحرفِ المقطَّعةِ، المُفْتَتَحِ بها بعضُ سورِ الذّكر الحكيم، واصطفاءَ مواضعِها، وأعدادِها يَبقى سرُّه عند اللّه تعالى

التّنويهُ بشأنِ القُرآنِ الكريمِ النّازلِ بالنّورِ لإخراجِ النّاسِ إلى النّورِ

(1) الأزهري، تهذيب اللغة: (ويل).
(2) ابن سيده، المحكم: (ويل).
(3) أبو البقاء، الكليات: (ويل).
(4) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/476.

منزِّلِ الكتاب، وأنّ ما قيل ويُقال في تأويلها: إنما هي آراءُ علماءَ مُحبّين لكلام الله تعالى، مُجتهدين في فهم أسراره بحسب طاقةِ عقولِهم البشريّةِ.

وهذه الأحرفُ وجْهٌ من وجوه إعجازِ القرآن الكريم، ودليلُ تحدٍّ للإنس والجانِّ بأن يأتوا بمثلِ هذا القرآنِ المركَّبِ من هذه الأحرفِ، التي بَهَرَتْهُم[1] على اختلافِ أعدادِها، وموضعِ كلٍّ منها من سورِ الذّكرِ الحكيم، وقد "قال بعضُهم: لكلِّ كتابٍ سِرٌّ، وسِرُّ القرآن فواتِحُه"[2].

ولعلَّ من أسرارِ وضْعِها في أوائل السّورةِ هنا ومطالعِ السّوَرِ عمومًا أنَّ الله تعالى "أسمعَهم هذه الحروفَ مقطّعةً على خلاف ما كانوا يَسمعون الحروفَ المنظومةَ في الخطاب؛ فأعرضوا عن كلِّ شيءٍ وسمعوا لها، ونبَّهَهُم القرآنُ إلى أنَّ هذه التي يسمعونها آياتُ الكتاب، فقال لهم لمّا حضرتْ ألبابُهم، واستعدَّتْ لسماعِ ما يقولُ آذانُهم"[3]: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾.

فهذه الأحرفُ ابتُدئَ بها في هذه السّورةِ لِما فيها من نصرةٍ لدين الإسلام، وما اشتملتْ عليه من رفعِ عقيدةِ التّوحيد، وبيانِ ما استهلَّت به منَ التّنويه بشأنِ القرآنِ الكريم، المنعوتِ بالكتابِ المُنزَلِ إلى الأرضِ منَ السَّماءِ، بقصْدِ الإخراجِ منَ الظلماتِ إلى النّور.

موقعُ جملةِ ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ﴾:

الكتابُ المنزَّلُ مُؤلَّفٌ منَ الأحرُفِ المقطَّعةِ

اختُلِفَ في إعرابِ ﴿الٓرۚ﴾ فقيل: إنَّها مبتدأٌ وخبرُها كتابٌ، وقيل: إنَّها خبرٌ والمبتدأ محذوفٌ، "تقديرُه: هذه ﴿الٓرۚ﴾، وفي مَوضعِ نَصْبٍ على تَقْديرِ: الْزَم أوِ اقْرَأْ ﴿الٓرۚ﴾، و﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ﴾ جُمْلَةٌ مُفَسِّرَةٌ في هذين الإعرابين"[4].

(1) "بهَرهُ الشَّيءُ: أدهشه وحيَّره، جذب انتباهه "بهرتني فطنته وذكاؤه في المناقشة - بَهَرَ المغني الجمهورَ بصوته". يُنظر: مختار، معجم اللغة العربية المعاصرة: (بهر).

(2) ابن جرير، جامع البيان: 1/210.

(3) القشيري، لطائف الإشارات: 2/262.

(4) أبو حيان، البحر المحيط: 6/405.

فإذا كانت ﴿الٓرۚ﴾ خبرًا لمبتدأٍ محذوفٍ، فإنَّ قولَه تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ﴾ جملةٌ مبيِّنةٌ للتي قبلَها، أي: هذه الر، كتابٌ أنزلناه إليك؛ أي: أنَّ الكتابَ مؤلَّفٌ من هذه الأحرفِ المقطَّعة التي ذُكِر في مطلعِ هذه السّورة بعضٌ منها.

غرَضُ تنكير ﴿كِتَٰبٌ﴾:

تعظيمُ القرآنِ العظيمِ والتَّنويهُ بشأنِه غايةً وقصْدًا

تنكيرُ ﴿كِتَٰبٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ﴾ يُضْفي عليه الفخامةَ والجلالَ، ويوحي بأنه ﴿كِتَٰبٌ﴾ لا يُقادَرُ قدْرُه، ولا يُحاطُ بفضله، وذلك على عادة التّنكيرِ منَ التّلوُّنِ مع المقاماتِ بين التّفخيمِ والتّحقيرِ، والتّهويلِ والتّهوينِ، والمقامُ هنا للتّفخيم والتّعظيم، فما أعظَمَه من ﴿كِتَٰبٌ﴾! وما أفخَمَه من ﴿كِتَٰبٌ﴾ قال اللّه تعالى فيه: ﴿مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٖۚ﴾ [الأنعام: 38]! وفي تنكيره "تنويهٌ بشأن القرآن الكريمِ، وبيانٌ للغرَضِ السّامي الذي أنزلَه اللّه تعالى من أجلِه"[1].

سِرُّ إيثارِ لفْظِ كتابٍ:

القرآنُ راسخٌ في معناه، ثابتٌ في مَبناه، باقٍ في أثرِه

في بدْءِ السّورة الكريمةِ يُذكر الكتابُ في قوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ﴾ إثْرَ خَتْمِ السّورة السّابقةِ (الرعد) بذكر الكتابِ في قوله تعالى: ﴿وَمَنۡ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ فيتحقّقُ الاتّساقُ الدقيقُ، بين اللَّفظَين، ففي آية الرَّعد يحتملُ لفظُ الكتاب معانيَ عدّةً، أمّا هنا فمحمولٌ على القرآن الكريم وحدَه، وفي ذلك إشارةٌ خفيَّةٌ إلى نوعِ مَيْلٍ لأنْ يكونَ المقصودُ بالكتابِ القرآنَ، وفائدةُ البدءِ بالكتابِ الإشارةُ إلى أنَّه كتابٌ ثابتٌ باقٍ راسخٌ، لا يتغيَّرُ ولا يتحوَّلُ ولا يتبدَّلُ، إلّا بأمرِ المُنزِلِ القهّارِ.

نُكتةُ الوصْفِ بالفعلِ الماضي:

يُتيح الوصفُ بجملةِ: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ﴾ ذِكرَ عناصرَ تُغني

(1) طنطاوي، التفسير الوسيط: 7/510.

الإخبارُ عن اكتمالِ نُزولِ القرآنِ الكريمِ إشارةٌ إلى إعْجازٍ غيبيٍّ مستقبليٍّ

الدّلالاتِ، وتمنحُها غزارةَ الإشارات، من ذلك الفعلُ (أنزل) مادّةً وصيغةً، إذِ المادّةُ تُضفي على الـ ﴿كِتَٰبٌ﴾ صفةَ التَّجسيد، وكأنّه شيءٌ محسوسٌ مُجسَّمٌ أُنزلَ منَ السّماء؛ كنايةً عن وضوحِه، وتميُّزِه، واكتمالِ فوائدِه، والصّيغةُ الماضيةُ تُفصِحُ عن تحقُّقِ نزولِه من عُلوٍّ، منَ السّماء على رسول الله ﷺ، وأنَّ هذا الإنزالَ سيكتملُ، فهي إشارةٌ إلى اكتمالِ النّزولِ، وهذا من باب الإعجازِ الغيبيِّ.

غرَضُ إسنادِ فعْلِ أنزلَ:

اشتملَ القرآنُ ضَماناتِ الفوزِ وأسبابَ الشَّرفِ المُعلَّى لأهلِه المؤمنين

ضميرُ العظمةِ (نا) في قولِه تعالى: ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾ يفيدُ التّعظيمَ، ويدلُّ دلالةً قاطعةً على أنّ الـ ﴿كِتَٰبٌ﴾ من عندِ الله تعالى، وأنه لذلك ﴿كِتَٰبٌ﴾ عظيمٌ مباركٌ، نافعٌ لكلِّ مَن يأخذُ به، ويتشبَّثُ بعقائدِه وشرائعِه، وأنّه ذِكرٌ له وشرفٌ؛ لأنّه عُلويُّ النَّسَب، علويُّ التّوجيهاتِ ساميها؛ فأكرم به من ﴿كِتَٰبٌ﴾! وما دام القرآنُ الكريم كتابًا أنزلَه الله تعالى فجديرٌ بالنّاسِ أن يحتضِنوا أنوارَه، وأن يلتزِموا تكاليفَه، وأن يستثْمِروا تعاليمَه؛ ليَضمَنوا السّلامةَ ويَهنَؤوا بالطّمأنينةِ والرّخاءِ.

بَلاغةُ التَّصريحِ بقولِه: ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾ و﴿إِلَيْكَ﴾:

تشريفُ النَّبيِّ بأن جُعلَ مُنتهَى الإنزالِ إليه

القيدُ ﴿إِلَيْكَ﴾ قيدٌ ضروريٌّ في بيان مغزى الكلام وتقريرِه؛ فإنَّ الكفّارَ لا يُنكرون إنزالَ القرآن، وإنّما يُنكرون أن ينزَّلَ عليه ﷺ، وقد قالوها صريحةً: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾﴾ [الزخرف: 31]! فكونُ الإنزالِ ﴿إِلَيْكَ﴾ يا محمّد صلى الله عليك وسلم قضيّةُ القضايا في هذا السّياقِ المربوطِ بآخر السّورة السّابقةِ، فيهدمُ قولَهم هناك: ﴿لَسْتَ مُرْسَلًا﴾، ويُبوِّئُك منزلتَك التي أكرمَك الله تعالى بها منَ التّشريف، ويُقرِّرُ أنّك رسولٌ مُرسلٌ من قِبَلِ الحقّ ﷻ، وأنّك مقوًّى بالكتاب، وأنَّ إنزالَ الكتاب قبل ذِكر

عِلَّتِه وسببِه إنّما كان ﴿إِلَيۡكَ﴾، وفي ذلك ردّ فخيمٌ لاعتبارِه ﷺ إزاءَ تكذيبِهمُ الآثمِ، وفيه من تشريفِ المُنزلِ إليه وتكريمِه ما تعجزُ الأقلامُ عن وصْفِه، وفيه رِفعةٌ للنّبيّ ﷺ بأن جُعل مُنتهى الإنزالِ منَ اللّه تعالى إليه.

بَلاغةُ تقْييدِ الإنزالِ بغايتِه:

عِلَّةُ إنزالِ الكتابِ تَـنْـويـرُ الـنّـاسِ بعدَ ظُلْمَتِهم

تُحدِّدُ الآيةُ الكريمةُ في قوله تعالى: ﴿لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ من خلال هذا القيْدِ غايةَ إنزالِ الكتابِ الأولَى على الرّسولِ ﷺ، وأنّها إخراجُ ﴿ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾، وأنّها "لتهديَهم به من ظلماتِ الضّلالة والكفرِ إلى نور الإيمانِ وضيائِه، وتُبصّرُ به أهلَ الجهلِ والعَمى سُبلَ الرّشاد والهدى"[1]. وما أجملَها من غاية! لكتابٍ ما أجملَه من كتاب! على رسولٍ ما أجمله من رسولٍ! وهل توجد غايةٌ لكتابٍ أفضلُ ولا أطيبُ ولا أهدى من هذه الغاية؟ إنّها غايةٌ تؤدّي إلى أشرف نهايةٍ لأشرف كائنٍ يعيش على هذا الكوكب، إنّها ترمي إلى إخراج الناس – كلِّ النّاس – منَ الظّلمات – كلِّ الظّلمات – إلى النّورِ الواحدِ.

فمدارُ إنزالِ الكتابِ على قلبِ النَّبيِّ ﷺ هو إخراجُ النّاسِ من الظُّلمات إلى النّور، فاللّامُ تعليليَّةٌ من حيث الوظيفةُ التَّبليغيَّةُ، وللعاقبة من حيثُ الإخبارُ، و"تَعْليلُ الإنْزالِ بالإخْراجِ مِنَ الظُّلُماتِ دَلَّ على أنَّ الهِدايَةَ هي مُرادُ اللّه تعالى مِنَ النّاسِ، وأنَّهُ لَم يَتْرُكْهُم في ضَلالِهِم، فمَنِ اهْتَدَى فَبِإرْشادِ اللّه ومَنْ ضَلَّ فَبِإيثارِ الضّالّ هوى نَفسِه على دَلائِلِ الإرْشادِ، وأمْرُ اللّه لا يَكونُ إلّا لِحِكَمٍ ومَصالِحَ بَعْضُها أكْبَرُ مِنْ بَعْضٍ"[2].

(1) ابن جرير، جامع البيان: 13/588.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/180.

بَلاغةُ الاسْتِعارةِ في لفْظِ: ﴿لِتُخْرِجَ﴾:

تصويرُ المعقولِ أدْعى لاجْتِنابِ الغَوايةِ وتحقيقِ الهِدايةِ

شُبِّهتِ الهدايةُ بالإخراج، وصُرِّح بالإخراجِ على سبيل الاستعارةِ التَّصريحيَّةِ التَّبعيَّةِ، والتَّعبيرُ بالاستعارةِ أبلغُ منَ الحقيقةِ، إذِ الاستعارةُ فيها تصويرُ المعنى المعقولِ بصورةِ المحسوسِ، وذلك أدعى للتَّرغيبِ بالهدايةِ، واجتنابِ الغَوايةِ.

بَلاغةُ إسنادِ الإخراجِ إلى الرَّسولِ:

هِدايةُ الرَّسولِ هدايةُ إرشادٍ وتعليمٍ

جاء إسنادُ إخراجِ النّاسِ منَ الظّلمات إلى النّور إلى رسول الله ﷺ، لا إلى الفاعل الحقيقيِّ وهو الله تعالى؛ لقولِه تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [القصص: 56]، فهو إسنادٌ مَجازيٌّ، وفي إسنادِ الإخراج إليه ﷺ تَنْويهٌ عظيمٌ وتشريفٌ لَهُ ﷺ مِنْ حَيْثُ المُشارَكَةُ في تَحْصيلِ الهدايَةِ بإنْزالِهِ تعالى، وبإخْراجِهِ ﷺ، إذْ هو الدّاعي والمُنْذِرُ[1]؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾﴾ [الشورى: 52]، وهو بذلك يجبُرُ بخاطرِه إزاءَ إنكارِ قومه له ﴿لَسْتَ مُرْسَلًا﴾، في الوقت ذاتِه الذي يحتفظُ بإذن الإخراجِ إلى صاحب الإذنِ ﷻ؛ فسُبحانَ مَن هذا كلامُه!.

بَلاغةُ الاخْتِراسِ في لفْظِ النّاسِ:

دفْعُ أوهامِ الأفهامِ أنَّ المُرادَ بالنّاسِ العربُ دونَ سِواهم

آثرَ النَّظمُ التَّعبيرَ بلفظِ ﴿ٱلنَّاسَ﴾ دون الكافرين في جملةِ ﴿لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ والإخراجُ إنّما يكونُ للكافرين، فلفظُ النّاسِ لفظٌ عامٌّ، فتعريفُ ﴿ٱلنَّاسَ﴾ يتَّسعُ ليَستقصي كلَّ ﴿ٱلنَّاسَ﴾ في كلِّ زمانٍ ومكان، فلا أحدَ منَ ﴿ٱلنَّاسَ﴾ أحقُّ باعتناق هذا الدين من أحدٍ منهم، وذلك يَلتقي مع قوله ﷺ: «وكان النّبيُّ يُبعثُ في قومه خاصّةً وبُعثتُ إلى النّاسِ عامّةً»[2].

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 6/406.

(2) البخاري، الجامع الصحيح، الحديث رقم: (335)، وأحمد، المسند، الحديث رقم: (14264) بزيادة لفظ (إنّما).

وكذلك لأنَّ التَّعبيرَ بالنّاس أحقُّ بجميعِ النّاسِ كأهل الكتابِ وأصحابِ الدّياناتِ غيرِ الغيبيّةِ وجميع الملل، وهم وإن كانوا كافرين، إلّا أنَّه قد يُظنُّ بأنَّ المرادَ بالكافرين العربُ لا سِواهم، فهذا تعبيرٌ احترازيٌّ كي لا يُظنَّ بأنَّ المرادَ خصوصُ العربِ لا عمومُ النّاسِ، فالنّاس كلُّهم مخلوقون مربوبون مُتعبَّدون للّه ﷻ، وهذا ﴿كِتَٰبٌ﴾ اللّه ﷻ للجميع بركةً وهدايةً، وعلى الجميع التزامُ تعاليمِه، لينجوَ الجميعُ من تخبُّطِ الشّركِ، ويَهتدوا بأنوار الذِّكرِ، في الوصول إلى اللّه تعالى، ويَسعدوا بالفوز والرّضوانِ.

بَراعةُ اسْتِعمالِ حرفي ﴿مِنَ﴾ و﴿إِلَى﴾:

التَّنبيهُ على البداياتِ المُظلمةِ توطئةٌ للكَشْفِ عنِ النِّهاياتِ المُشرقةِ

استعمالُ حرفِ الجرِّ ﴿مِنَ﴾ في قوله تعالى: ﴿لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ جاء على غاية البراعةِ، فهو تنبيهٌ على مبدأ الإخراجِ، وهو يُقابلُ حرفَ ﴿إِلَى﴾ الذي يُنبِّهُ على غاية الإخراجِ، وهي تَوطئةٌ لِما بعدَها من ذكْرِ الطّريق المُنْجي في قولِه تعالى: ﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾، فهو انتقالٌ من مكانٍ غائرٍ مظلمٍ إلى مكانٍ منكشفٍ واضحٍ، للمُضيِّ في طريقٍ نيِّرٍ.

بَلاغةُ الاستعارةِ في كلمتَيِ (الظلمات والنّور):

الإخراجُ من ظُلماتِ الجهلِ والشّكِّ إلى نورِ العلْمِ واليقينِ

شَبَّهتِ الآيةُ الكفرَ بالظّلمات، والإسلامَ بالنّور[1]، ثم حَذَفتِ المُشبَّهَ وصرَّحت بالمشبَّهِ به على سبيل الاستعارةِ التَّصريحيَّةِ الأصليَّةِ في الكلمتَين، وهاتان الصّورتان البيانيتان عَلَمانِ من أعلام البيانِ العربيِّ الأصيلِ على الإطلاقِ، ولا يوجدُ في اللّغة غالبًا أشهرُ ولا أبينُ عنِ المقصودِ هنا منهما. فالظّلماتُ هي جميعُ الضَّلالاتِ الصّادَّةِ عن دين اللّه تعالى، والنّورُ هو الهُدى الدّالُّ على الحقِّ، فالرّسول ﷺ يُخرجُ النّاسَ بهذا الكتاب المبينِ "من ظلماتِ الجهل إلى نور العلم، ومن ظلماتِ الشّكّ إلى نور اليقينِ، ومن ظُلمات التّدبيرِ إلى فضاءِ شهودِ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/405.

التّقدير، ومن ظلماتِ الابتداعِ إلى نور الاتِّباعِ، ومن ظُلمات دعاوَى النّفسِ إلى نورِ معارفِ القلبِ، ومن ظلمات التّفرقةِ إلى نور الجمْعِ"[1].

الكفرُ والضّلالُ ظُلمَتان روحيّتان وعَقْليتان

على أنَّ أدقَّ المعاني المقصودةِ بـ ﴿ٱلظُّلُمَٰتِ﴾: الكفرُ والضّلالُ، والكفرُ والضّلالُ ظلمةٌ روحيةٌ وعقليةٌ، يجعلان صاحبَهما الكافرَ الضّالَّ يَتخبَّطُ في حياته الرّوحيّةِ والفكريّةِ كما يتخبّطُ الماشي في ظلمةِ محسوساتٍ؛ تحطِمُه أو يحطمُها.

فـ ﴿ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ و﴿ٱلنُّورِ﴾ منَ البيانِ الكاشفِ في أعالي درجاتِ الإبانةِ، ولن يَبلغَ المعنى المقصودُ وضوحًا لو صُرِّحَ بالكفر والإيمانِ مباشرةً بدون تصويرٍ، وكأنّه ﷺ بهاتين الاستعارتَيْن يُخرجُ النّاس منَ ﴿ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ الحقيقيّةِ إلى ﴿ٱلنُّورِ﴾ الحقيقيِّ بهذا الكتاب العظيم؛ إذِ الاستعارةُ مرحلةٌ أدْخلُ في المبالغة منَ التّشبيه القائلِ بالمُغايرةِ.

ولا أكشَفَ عن خطورةِ الضّلال والكفرِ من صورة ﴿ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ الصّريحةِ، كما أنه لا أكشَفَ عن بركاتِ الهُدى والإيمانِ على صاحبِهما من صورة ﴿ٱلنُّورِ﴾ الذي يكشفُ لصاحبِه مساربَ الحياةِ، ويُريه ما فيها من عقباتٍ؛ فيتَحاشاها فلا تحطمُه ويَنجو هو، ولا يحطمُها فتنجو هي.

بَلاغةُ تنوُّعِ الاستعارةِ في ﴿ٱلظُّلُمَٰتِ﴾:

الخارجُ منَ الظّلماتِ ناجٍ من دَرَكِ الموتِ إلى رِفْعةِ الحقِّ

للفظِ الظّلمات استعارةٌ أخرى، وهي أنَّه شبَّهَ الظّلماتِ بالبئر الذي يخرجُ منه النّاس، وحذفَ المشبّهَ به وذكر لازمًا من لوازمه وهو الإخراجُ، فعلى هذا الوجهِ هي استعارةٌ مكنيَّةٌ أصليّةٌ، وهي كذلك تخييليَّةٌ؛ لأنَّها تُخيِّلُ هيئةَ الخارجِ منَ الظّلمات بهيئةِ النّاجي من بئرِ الموتِ إلى نور الحقِّ.

(1) القشيري، لطائف الإشارات: 2/238.

نُكتةُ جمْعِ الظّلماتِ وإفرادِ النّورِ:

طـريـقُ الـحـقِّ واحـدٌ، وطُـرُقُ الضَّلالِ كثيرةٌ

في قوله تعالى: ﴿لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ جمعَ النّظمُ الكريمُ لفظَ ﴿ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ لِتنوُّعِ مصادرِ الضّلال، وتعدُّدِ مظاهرِ الكفر، التي تتكاثفُ على الكافر الضّالِّ فتُفسدُ عليه الحياةَ الدنيا، وتُسعِّرُ عليه الحياةَ الأُخرى، في حين أفردَ لفظَ ﴿ٱلنُّورِ﴾؛ لأنَّه لا نورَ إلا من قِبَل الله تعالى، فـ ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [النور: 35]، ولبيانِ أنَّه مَنِ ابتغى النّورَ في غير شِرعته ومنهاجِه ضلَّ سَواءَ السّبيلِ، وتاهَ في ظُلمات الضّلال، فمصدرُ النّورِ الرّوحيّ والعقليّ هو نورُ الله تعالى ودينُ الله ﷻ ومنهجُ الله وحدَه.

بَلاغةُ الاحْتِراس بقيدِ ﴿بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ﴾:

وظيفةُ الرّسولِ ﷺ الـدَّعـوةُ للإخراجِ وحقيقةُ الأمْـرِ لصاحبِ الأمرِ

هذا القيدُ ﴿بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ﴾؛ قيدٌ للفعل ﴿لِتُخۡرِجَ﴾، أي أنّه ﷺ لا يُخرِج مَن لم يأذنْ له الله تعالى بالخروج منَ الظّلمات إلى النّور؛ فلا تَظُنَنَّ أنَّ أحدًا حتى رسولَ الله ﷺ قادرٌ على أن يُخرج النّاسَ منَ الظّلمات إلى النّور بقُدرته، ولكنْ بتوفيق الله ﷻ وإذنه، وإرادته، وتوفيقِ ربّهم لهم بذلك، ولطفِه بهم، وبأمر ربِّهم، وبعلم ربِّهم، وقضائه به، وتمكينه لهم[1]؛ "وذلك يدُلُّ على أنَّ الرَّسولَ ﷺ لا يُمْكِنُهُ إخْراجُ النّاسِ من الظُّلُماتِ إلى النّورِ إلّا بمشيئةِ اللهِ"[2]؛ فإنّه ﷻ: ﴿إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٨٢﴾ [يس: 82].

ففي هذا القيدِ ﴿بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ﴾ "احتراسٌ؛ لبيانِ أنّ نقلَ النّاس من حال إلى حالٍ إنّما هو بإرادةِ الله تعالى ومشيئتِه، وأنّ الرّسولَ ﷺ ما هو إلّا مُبلِّغٌ فقط، أمّا الهدايةُ فمنَ الله ﷻ وحدَه"[3]، فاستعملتِ "الباءُ في ﴿بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ﴾ للسَّببيَّةِ"[4].

(1) ابن جرير، جامع البيان: 13/588، وابن عطية، المحرر الوجيز: 3/321، والماوردي، النكت والعيون: 3/120.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 19/57.

(3) طنطاوي، التفسير الوسيط: 7/511.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/181.

بَلاغةُ الاستعارةِ في لفْظِ الإذنِ:

إذنُ الله تعالى إن جـاءَ خـرجَ العـبدُ مـن بـئْرِ الـظُّـلـمـات إلى طريقِ الأنوارِ

في قوله تعالى: ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ شبَّهتِ الآيةُ توقُّفَ الإخراجِ من بئرِ الظّلماتِ إلى نورِ الطّريقِ بالإذن؛ فـ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾، "أي: بتسهيلِه وتيسيرِه، مُستعارٌ منَ الإذن الذي هو تسهيلُ الحجابِ، وذلك ما يَمنحُهم منَ اللّطفِ والتّوفيقِ"[1]، أي: بعدَ صدورِ إذن اللّه يكونُ إخراجُ النّاس منَ الظُّلمات إلى النّور، فالإخراجُ مُتوقّفٌ على الإذنِ الربّانيِّ، فهو تشبيهُ الإذن بشيءٍ مانعٍ منَ الإخراج، فإن أذِنَ اللّه أُخرِجوا، ففيه بيان أنَّ فضلَ الهداية هو للّه تعالى وحدَه، وأنَّ النَّبيَّ ﷺ هو وسيلةُ تلك الهدايةِ، وهذا يُقوّي جعْلَ الباءِ للسَّببيَّةِ، أي: بسببِ إذنِ اللّه تعالى يخرجُ العبادُ من سجنِ الظّلماتِ إلى أنوارِ الطّريقِ المستقيمِ.

نُكتةُ ذكْرِ عُنوانِ الرُّبوبيّةِ دونَ الأُلوهيّةِ:

التَّربيةُ الرّوحيَّةُ مـن مَـظـاهـرِ الرُّبوبيَّةِ ورِعايةِ العبادِ

دَرَجَ الذِّكْرُ الحكيمُ على ذِكر صفةِ الـ (رَّبِّ) في مواضعِ ذكْرِ إنعامِه ﷻ على عباده، ومن أعظم نَعمائِه ﷺ على عباده أن يَأْذنَ لهم ويوفّقَهم إلى الخروج منَ ﴿ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ للنَّجاةِ إلى نورِ الإيمان ونورِ اليقينِ؛ لذلك آثرَ السّياقُ الكريمُ في قوله تعالى: ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ وصْفَ ﴿رَبِّهِمْ﴾ دونَ (اللّه)؛ فالهدايةُ من آثار الرُّبوبيَّةِ، وهي مُشعرةٌ بالتّربيةِ لاسيَّما التَّربيةُ الرّوحيّةُ.

و"لَمّا ذكرَ علَّةَ إنزالِ الكتابِ وهي قولُه: ﴿لِتُخْرِجَ﴾ قال: ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾، أيْ: ذلك الْإِخْراجُ بتسهيلِ مالكِهم النّاظرِ في مصالحِهم، إذ هم عبيدُه، فناسبَ ذكرُ الرَّبِّ هُنا تَنْبيهًا على منَّةِ المالِكِ، وكونُهُ ناظرًا في حال عبيدِه"[2].

(1) الزمخشري، الكشاف: 2/537، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/405.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 6/406.

دَلالةُ الإضافةِ في ﴿رَبِّهِمْ﴾:

رِعـايـةُ الـلـه ورحْمتُه تَلْحقُ جميعَ النّاس مُـؤمـنِـهـم وضالِّهم

في إضافة (الرّبّ) سُبحانه إلى ضميرِ ﴿ٱلنَّاسَ﴾ في ﴿رَبِّهِمْ﴾ من معاني التّلطُّفِ بهم، والتَّحَنُّنِ عليهم، والعنايةِ بهم ما فيه، كما فيه من وجوب طاعتِه، ووجوبِ الإحساسِ بالانتماءِ إليه، والولاءِ له؛ فلا (ربّ) لهم سِواه ﷻ، ولا يُرَبّيهم ولا يقومُ على كلِّ نفسٍ منهم إلّا هو عزَّ في عُلاه؛ ولا (نور) إلّا في الدّين الحقِّ ﴿صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾، المذكورِ في أوّلِ القرآنِ الكريم ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: 7]. فهو (صراطٌ) واحدٌ، وهو (إيمانٌ واحدٌ)، وهو هدًى واحدٌ، و«مَنِ ابتغى الهُدى في غيرِه أضَلَّهُ اللّه»[1].

بَراعةُ جُملةِ ﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾:

النّورُ الحقُّ هو صِراطُ الحقِّ

قولُه تعالى: ﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ بدلٌ من قولِه تعالى: ﴿إِلَى ٱلنُّورِ﴾ لزيادةِ بيانِ المُبدَلِ منه اهتمامًا به، وتأكيدًا للعاملِ[2]، وهو قرينةُ صرْفِ ﴿ٱلنُّورِ﴾ عن ظاهرِ معناه إلى المعنى المجازيِّ المقصودِ وهو كونُ الإخراجِ ﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ لا إلى نورٍ حِسّي حقيقيٍّ، ولا إلى نورٍ هُلاميٍّ فضفاضٍ، وفي ذلك قَطْعٌ للطّريقِ على أصحابِ الفَلسفاتِ الرّوحيَّةِ والنّظريّاتِ المُتعاقِبةِ على صفحةِ الزّمان، الذين يَدعون لِفلسفاتِهم ونظريّاتِهم، دونَ ضابطٍ شرعيٍّ.

ويجوزُ أن يكونَ ﴿صِرَٰطِ﴾ بُدِئَ به على وجه الاستئنافِ، كأنَّه قيل: إلى أيِّ نورٍ؟ فقيل: إلى صراط العزيز الحميد[3]. والإعرابان يَجتمعان في بيانِ المقصودِ بالنّورِ، وتعيينِ الطَّريقِ الموصِلِ إلى الحقِّ ﷻ.

مُناسبةُ الاستِعارة في ﴿صِرَٰطِ﴾:

الخارجُ من بِئْرِ الظُّلماتِ يَبحثُ عن نورِ الطَّريقِ وضياءِ السَّبيلِ

معنى (الصّراط) في اللّغة: "الجادَّةُ، والطريقُ، من سَرَطَ

(1) الترمذي، سنن الترمذي، الحديث رقم: (2906).
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/181.
(3) الزمخشري، الكشاف: 2/537.

الشّيءَ إذا ابتلعَه، وسُمّي الطريقُ بذلك؛ لأنه يبتلعُ المارّين فيه، وأُبدِلتْ سينُهُ صادًا على لغةِ قُريشٍ"[1]، وعلى ذلك فلفظُ الصّراطِ مُستعارٌ لدين الله ﷺ الإسلامِ، من باب الاستعارةِ التَّصريحيّةِ الأصليَّةِ؛ ليُضفي عليه معانيَ الوضوحِ والاستقامةِ، والتّوصيلِ إلى السّلامةِ، وما إلى ذلك من خصائصِ الطّريقِ المُستقيمِ، ومن هنا فمناسبةُ ذكْرِ الصّراطِ مع لفظِ الإخراجِ في كوْنِ الذي يخرجُ من بئْرِ الظّلمات يحسُنُ به أن يُحتضنَ بصراطِ الحقِّ، فهو خروجٌ من مكانٍ واستقرارٌ في آخرَ.

مُناسبةُ تلازُمِ صفتَيِ ﴿ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾:

في صفة ﴿ٱلۡعَزِيزِ﴾ نَشْرٌ للطّمأنينةِ في نفوس النّاس، إذ إنّ ﴿رَبِّهِمۡ﴾ (عزيز) غالبٌ قويٌّ قادرٌ، ومنه عِزُّهم وعِزَّتُهم، وبدونِه لا ربَّ ولا عِزَّ ولا عِزّةَ لهم؛ ففي صيغة ﴿ٱلۡعَزِيزِ﴾ معنى (المُعِزّ)، فهو (عزيز) في نفسه، ويُعِزُّ غيرَه كما قال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٢٦﴾ [آل عمران: 26].

ما أنْزلَ الكتابَ إلّا عـزيـزٌ لا يُغالَبُ وحميدٌ يَستحقُّ عَظيمَ الشُّكْرِ وكبيرَ الحمْدِ

فهاتان الصِّفتان ﴿ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾ "لائقتانِ بهذا الموضعِ؛ فالعزَّةُ مِن حيثُ الإنزالُ للكتابِ، وما في ضمْنِ ذلك منَ القدرة، واسْتيجابِ الحمْدِ من جهةِ بَثِّ هذه النِّعَم على العالَم في نَصْبِ هدايتهم"[2]، وقدِ اخْتيرت هاتان الصِّفتان "لمزيدِ مُناسبتِها للمَقام؛ لأنَّ ﴿ٱلۡعَزِيزِ﴾ الذي لا يُغْلَبُ، وإنزالُ الكتابِ برهانٌ على أحقيَّةِ ما أرادَهُ الله منَ النّاسِ فهو به غالبٌ للمُخالفينَ مُقيمٌ الحُجَّةَ عليهم، و﴿ٱلۡحَمِيدِ﴾: بمَعْنَى المَحْمودِ؛ لأنَّ في إنْزالِ هذا الكِتابِ نِعْمَةً عظيمَةً تُرشدُ إلى حَمْدِهِ عليهِ، وبذلك استوعبَ الوَصْفانِ الإشارَةَ إلى الفَريقَيْنِ مِنْ كُلِّ

(1) طنطاوي، التفسير الوسيط: 7/510.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/322.

مُنْساقٍ إلى الاهْتِداءِ مِنْ أوَّلِ وهْلَةٍ، ومِنْ مُجادِلٍ صائِرٍ إلى الاهْتِداءِ بَعْدَ قيامِ الْحُجَّةِ ونفادِ الحيلَةِ"[1]، كذلك لمّا "تَقَدَّمَ شَيْئَانِ: أحَدُهُما: إسْنادُ إنْزالِ هذا الكِتابِ إليه سُبحانه، والثّاني: إخْراجُ النّاسِ مِنَ الظُّلُماتِ إلى النّورِ بإذْنِ رَبِّهِم ناسَبَ ذِكْرُ هاتَيْنِ الصِّفَتَيْنِ صِفَةِ العِزَّةِ المُتَضَمِّنَةِ لِلْقُدْرَةِ والغَلَبَةِ؛ وذلك مِنْ حَيْثُ إنْزالُ الْكِتابِ، وصِفَةِ الحَمْدِ المُتَضَمِّنَةِ اسْتِحْقاقِهِ الحَمْدَ مِنْ حَيْثُ الإخْراجُ مِنَ الظُّلُماتِ إلى النّورِ، إذِ الهِدايَةُ إلى الإيمانِ هي النِّعْمَةُ التي يَجِبُ على العَبْدِ الحَمْدُ عليها والشُّكْرُ"[2].

كذلك "في وصْفِ اللّه سُبحانه بهاتين الصّفتَين الكريمتَين: ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ تهديدٌ للكافرين بعزّة اللّه، وسُلطانِه الغالبِ، وتذكيرٌ للمؤمنين بنعمةِ اللّه عليهم بالإيمان، وأنّه المُستحقُّ للحمدِ، والحامدُ لعبادِه المؤمنين ما يُقدّمون له من طاعاتٍ وقُرُباتٍ"[3].

غرَضُ تَقْديمِ ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ على ﴿ٱلْحَمِيدِ﴾:

صفةُ الحميدِ كالثَّمَرةِ لِصِفةِ العزيزِ

قَدَّمَ النّظمُ الكريمُ ذِكْرَ صفة ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ على ذِكْرِ صفة ﴿ٱلْحَمِيدِ﴾ لأمورٍ:

الأوَّلُ: "أوَّلُ العِلْمِ باللّه العِلْمُ بِكَوْنِهِ تعالى قادِرًا، ثُمَّ بَعْدَ ذلك العِلْمُ بِكَوْنِهِ عالِمًا، ثُمَّ بَعْدَ ذلك العِلْمُ بِكَوْنِهِ غَنيا عَنِ الْحاجاتِ، و﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ هو القادِرُ و﴿ٱلْحَمِيدِ﴾ هو العالِمُ الغَني، فَلَمّا كانَ العِلْمُ بِكَوْنِهِ تعالى قادِرًا مُتَقَدِّمًا على العِلْمِ بِكَوْنِهِ عالِمًا بالكُلِّ غَنيا عَنِ الكُلِّ لا جَرَمَ قَدَّمَ اللّه ذِكْرَ ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ على ذكر ﴿ٱلْحَمِيدِ﴾"[4].

الثّاني: مناسبةُ تقديمِ العَزيزِ على الحميدِ للسّياقِ؛ إذ تَقَدَّمَتْ صِفَةُ العَزيزِ، لِتَقَدُّمِ ما دَلَّ عليها مِنَ العِزَّةِ المُتَضَمِّنَةِ لِقُدرته تعالى

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/181.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 6/406.
(3) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 7/147.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 19/58.

المُتحقّقةِ بإسنادِ إنْزالِ هذا الكِتابِ إليه سُبحانه، وتَليها صِفَةُ الحَميدِ لِتُلوِّ ما دَلَّ عليها مِن اسْتِحْقاقِهِ الحَمْدَ مِنْ حَيْثُ إخْراجُه النّاسَ مِنَ الظُّلُماتِ إلى النّورِ[1].

الثّالث: تأخيرُ ﴿ٱلْحَمِيدِ﴾؛ لأنَّه كالخاتمِ على الكلامِ السّابقِ؛ فهو "المحمودُ في أمرِه ونهْيِه لإنعامِه فيهما بأعظَمِ النِّعمِ"[2].

الرّابع: جاءت صفةُ ﴿ٱلْحَمِيدِ﴾ كالثّمرةِ لصفةِ ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾؛ فمِن حقِّ ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ أنْ يُحمدَ، وأن يُديمَ هؤلاء ﴿ٱلنَّاسَ﴾ له الحمدَ؛ فما دام يَرُبُّهُم ويُرَبّيهم ويُعِزُّهم ويَحفَظُهم ويَحوطُهم بعزَّتِه فهو صاحبُ الحمْدِ، المستحقُّ له، الجديرُ بجميعِ أنواعِ المحامدِ.

تَوجيهُ القراءاتِ في لفْظِ الجلالة ﴿ٱللَّهِ﴾:

اسْمُ اللهِ مُتّصفٌ بالعِزَّةِ والحمْدِ ومُلكِ السَّماواتِ والأرضِ

اختلف القرّاءُ في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ فقرأ المَدنيّان والشّامي برفعِ اسْمِ (اللّه) على الابتداءِ، وتصْييرِ قولِه: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ خبرَه، وقرأ الجمهورُ[3] بخفضِ اسمِ الجلالةِ: ﴿ٱللَّهِ ٱلَّذِى﴾ وجعْلِ ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ بدلًا من لفظِ الجلالةِ، والقراءتان متآيِلَتان في المعنى العامّ[4]، فلفظُ الجلالةِ سواءٌ أكان بدلًا أم مبتدأً فإنَّه مُتَّصفٌ بالعزَّةِ والحمْدِ ومُلكِ السّماواتِ والأرضِ.

بَلاغةُ مَوقعِ اسْمِ الجلالةِ:

دفعُ الأوْهامِ بتعْيينِ المُسْتحقِّ لصِفاتِ الكَمالِ والجَمالِ والجَلالِ

اسْمُ الجلالةِ هو العلَمُ الذي يختصُّ بالذّاتِ المُقدّسةِ، وهو الذي يتضمّنُ جميعَ الأسماءِ الحُسنى والصّفاتِ العُلى، وقد ذُكر في قولِه تعالى: ﴿ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بعد صِفَتَيِ ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ لتحديدِ الموصوفِ بدقّةٍ، ولِفَتْحِ آفاقٍ معنويّةٍ جديدةٍ بعد ذكرِ صفةِ الـ (ربّ) في قوله تعالى: ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾. وفي

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 6/406.
(2) القاسمي، محاسن التأويل: 6/297.
(3) ابن الجزري، النشر: 2/298.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/182.

ذلك توجيهٌ دَلاليٌّ إلى أنَّ صفتَي ﴿ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾ إذا أُطلقتا لا تنصرفان إلّا إلى ﴿ٱللَّهِ﴾ الخالقِ المالكِ ﴿ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ﴾، ففي ذكرِه في هذا الموقعِ إشارةٌ إلى أنَّ ما قد يُفهمُ منَ السّياق أنَّ "الكفّارَ ربَّما وصَفوا الوثنَ بكونهِ عَزيزًا حميدًا فلمّا قالَ: ﴿لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾ بقي في خاطرِ عبدةِ الأوثانِ أنَّهُ رُبَّما كانَ ذلك العَزيزُ الحَميدُ هو الوثَنُ، فأزالَ اللّه تعالى هذه الشُّبْهَةَ وقالَ: ﴿ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ﴾، أي: المرادُ من ذلك العزيزِ الحَميدِ هو اللّه الذي له ما في السَّماواتِ وما في الأرْضِ"[1].

لـفـظُ الـجلالةِ يُربّي المَهابةَ في النّفسِ

وصدّرَ سُبحانه الجملةَ التي فيها كمالُ سلطانِ اللّه تعالى في الوجودِ بلفظِ الجلالةِ؛ لتربيةِ المهابةِ في نفسِ القارئِ، ولأنَّ ذلك يتلاقى مع سُلطانِ اللّه الكاملِ[2].

بَلاغةُ التَّعبيرِ بالموصولِ:

غـرَضُ المَوصولِ تعظيمُ المَوصوفِ وتـفـخـيـمُـه لا تعريفُه وتعْيينُه

الموصولُ وحدَه فقيرُ الدّلالةِ، يحتاجُ إلى جملةٍ تُخَصِّصُه، وتحدّدُ معناه، وقد جاءتْ في قولِه تعالى: ﴿ٱللَّهِ ٱلَّذِي﴾ جملةً اسْميةً، والغرَضُ من "إجراءِ الوَصْفِ بالموصولِ على اسمِ الجلالةِ لزيادةِ التَّفْخيمِ لا للتَّعْريفِ؛ لأنَّ ملكَ سائرِ الموجوداتِ صفةٌ عظيمةٌ واللّه معروفٌ بها عندَ المُخاطَبينَ"[3].

بَلاغةُ التَّعريضِ بالمشركين:

ملكُ السَّماواتِ والأرضِ للّه وحدَه مُقدِّمةٌ موصِلةٌ إلى الحقِّ وحدَه

في ذكرِ الاسْمِ الموصولِ في قولِه تعالى: ﴿ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ تعريضٌ بالمشركين، وذلك ببيانِ "أنَّ صراطَ غيرِ اللّه من طُرُقِ آلِهَتِهم ليس بواصلٍ إلى المقصودِ لنُقصانِ ذويهِ، وفي

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 19/60.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 8/3982.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/182.

ذكرِ هذه الصِّلَةِ إدماجُ تعريضٍ بالمشركينَ الذينَ عبدوا ما ليسَ لهُ السَّماواتُ والأرْضُ"[1].

غرَضُ تقْديمِ شبْهِ الجملةِ ﴿لَهُۥ﴾:

قـضـرُ المـلـكِ المُطلقِ لصاحِبِ الحقِّ المُطلقِ

تقديم الجارِّ والمجرورِ ﴿لَهُۥ﴾ في قولِه تعالى: ﴿ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ يفيدُ القصْرَ الحقيقيَّ التَّحقيقيَّ، ومن يَظنُّ منَ الخلائق أنّه يمتلكُ شيئًا ممّا في الأرض بموجبِ عقودِ تَمَلُّكٍ فهو واهمٌ؛ لأنَّه هو وما مَلَك مِلْكٌ للّه ﷻ، وإلّا فأين يخرجُ من سُلطانِ اللّه تعالى وملكوتِه؟ وإنّما هو مستخلَفٌ في بعض ملكوتِه إلى حين، كما قال تعالى: ﴿ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد: 7]. فتقديمُ ﴿لَهُۥ﴾ يَقطعُ بِقَصْرِ ملكيّةِ ما في السّماوات وما في الأرض عليه ﷻ بلا شريكٍ، و"المعنى: أنَّ ﴿مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ لَهُ لا لِغَيْرِهِ وذلك يَدُلُّ على أنَّهُ لا مالِكَ إلّا اللّه ولا حاكِمَ إلّا اللّه"[2]، كما أنَّه "لا يشاركُه في ذلك مشاركٌ، ولا ينازعُه منازعٌ"[3].

نُكتةُ اسْتِعمالِ ﴿مَا﴾ وتَكرارِها:

غـرَضُ السّياقِ اسْتيعابُ كلِّ ما يخطرُ بالبالِ منَ الأملاكِ

الاسمُ الموصولُ ﴿مَا﴾ أكثرُ استيعابًا وأرحبُ دلالةً منَ الموصول (مَنْ)، إذ إنّ ﴿مَا﴾ يشملُ العاقلَ وغيرَه، أمّا (مَنْ) فيختصُّ بالعقلاء، وهذا المقامُ مقامُ استقصاءٍ وإحاطةٍ بجميع ما في السّماوات وجميعِ ما في الأرض؛ لذلك أوثِرَ الموصولُ ﴿مَا﴾، وكأنّي بالمدِّ في ﴿مَا﴾ يدعمُ ذلك الاستقصاءَ وتلك الإحاطةَ، أمّا (مَنْ) فمقصورةُ اللّفظ مقصورةُ الدّلالة على صنْفِ العقلاء.

فجاء الموصولُ: ﴿مَا﴾ مُكرَّرًا، في قوله تعالى: ﴿مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ مستوعِبًا جميعَ ما يخطرُ للإنسان على بالٍ، ممّا

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/182.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 19/60.
(3) طنطاوي، التفسير الوسيط: 7/511.

يوجدُ في السماوات على تعدُّدها وضخامتِها، ويوجدُ في الأرض على امتدادِها ورحابتِها، فتَكرارُ ﴿مَا﴾ للدّلالةِ على كمالِ استغراقِ الملكيّةِ له ﷻ، وهو على كلّ شيءٍ قديرٌ، مالكُ كلِّ شيءٍ[1].

وذكْرُ الموصولِ هنا أنسَبُ للسّياقِ والمقامِ من لفْظِ (مُلْك) كأن يُقال: (له ملك السّماوات والأرض)؛ وذلك لأنَّ ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أقربُ إلى اختصاصِه ﷻ بالخلْقِ وبالأمر في هذا الخلْقِ، أما (مُلك) فخاصٌّ بالامتلاك دونَ التّصريح بالتّصرُّفِ، فقد يملكُ مالكٌ ويتصرّفُ غيرُه.

والسّياقُ هنا يقتضي ذلك من حيث معالجتُه لعقائدِ ﴿ٱلنَّاسَ﴾ الذين أُنزِل الكتابُ عليه ﷺ لهدايتِهم، وإخراجِهم منَ الظّلمات إلى النّور بإذن ربّهم، ﴿ٱلنَّاسَ﴾ الذين يَنفون عنِ الرّسول ﷺ أن يكونَ مُرسلًا ويُخبرُهم بأنّ الذي ﴿لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ قضَى في مُلكِه بذلك، فلا رادَّ لقضائِه ولا معقِّبَ لحُكمِه.

دَلالةُ تَقْديمِ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ على ﴿ٱلْأَرْضِ﴾:

ناسبَ ذكْرُ إنزالِ الكتابِ منَ السَّماءِ تقديمَ ذكْرِ السَّماءِ على الأرض

غالبًا ما يُقدَّمُ في القرآن الكريم ذِكرُ السّماء على ذكر الأرض؛ لشرفِ السّماء وما فيها، وأحيانًا يقدّمُ ذكْرُ الأرض على ذكر السّماءِ لاعتباراتٍ سياقيّةٍ ووفاءً بمقتضياتِ الأحوالِ.

وهنا قُدِّم ذكرُ ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾؛ لأنه أشرفُ وأثمنُ وأغلى وأعجَبُ، ثمّ لأنَّ السّماواتِ سقفٌ مرفوعٌ تحيطُ بالأرض كان يمكنُ الاكتفاءُ بذكرِ ما فيها مُلكًا للّه تعالى عمّا في الأرض، وهذا كلامٌ يصلُحُ توجيهًا في غالب الآياتِ التي تَقدّمَ فيها ذكرُ السَّماواتِ على ذكرِ الأرض، لكنّ لهذه الآية موقعٌ خاصٌّ، وهو ذكرُ إنزالِ الكتابِ منَ السَّماءِ إلى الأرض، فلمّا بدأ بذكر إنزالِ الكتابِ منَ السَّماءِ، ناسبَ

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 8/3982.

أنْ يبدأ بذكْرِ السَّماءِ، ولمّا ذكرَ غايةَ الإنزالِ إلى الأرض ناسبَ التَّثنيةُ بذكْرِ الأرض.

دَلالةُ حرْفِ الظّرفيّةِ ﴿فِي﴾:

أفادَ حرْفُ الظَّرفيَّةِ دخولَ كلِّ مغلومٍ ومجْهولٍ في السَّماوات والأرض

استعمالُ حرْفِ الظَّرفيَّةِ في قولِه تعالى: ﴿لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ له لطفُه وبراعتُه في سياقِه، ذلك أنَّه يشتملُ كلَّ ما في السَّماوات والأرض، فهو متَّسقٌ مع استعمالِ ﴿مَا﴾ الموصوليَّةِ الدّالّةِ على الاتِّساعِ والشُّمولِ، فهو يتغلغلُ ليشملَ كلَّ مملوكٍ للّه تعالى، ممّا يعرفُه الإنسانُ وما لا يعرفُه.

نُكتةُ جمْعِ السَّماوات وإفرادِ الأرض:

الجمْعُ باعْتبارِ ما يُشاهدُه الإنْسانُ من تَعدادِ السَّماواتِ وانْفرادِ الأرضِ

جُمعتِ السَّماواتُ وأُفردَ ذكرُ الأرض في قولِه تعالى: ﴿لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ باعتبارِ الحقائقِ التي يُشاهدُها الإنسانُ، فالسّياقُ سياقُ بيانِ ملكِ السّماواتِ والأرضِ للّه تعالى، فكان ذكْرُ الظّاهرِ منها هو الأنسبُ، ثم إنَّ الأرض لم تُجمعْ في القرآن الكريم، فجرَى ذكرُها هنا على الاستعمالِ الكلّيِّ، والأرضُ تشملُ جميعَ ما في الأرضين السَّبعِ، فإنَّها اسمُ جنْسٍ يدخلُ فيها جميعُ الأرضين.

معنَى الواوِ في قولِه: ﴿وَوَيْلٌ﴾:

نَتيجةُ الكُفرِ ويلٌ يَلحَقُ أصْحابَه في الآخرة

عُطف قولُه تعالى: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ على مضمونِ الكلامِ السّابقِ، فلمّا "أفاد قولُه: ﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝١ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ تعريضًا بالمُشركين الذين اتّبعوا صراطَ غيرِ اللّه الذي له ما في السماوات وما في الأرض؛ عطفَ الكلامَ إلى تهديدِهم وإنذارِهم بقوله: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾، أي: للمشركين به آلهةً أخرى، وجملةُ ﴿وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ إنشاءُ دعاءٍ عليهم في مقام الغضبِ والذّمِّ، مثلَ

قولِهم: ويحكَ، فعطْفُهُ من عطْفِ الإنشاءِ على الخبرِ"[1]. وتحتملُ أن تكونَ الواوُ للاستئنافِ، أي: استئنافُ الكلامِ دعاءً على الكافرين.

تَوجيهُ تَخْصيص الويلِ بالذِّكرِ:

الويلُ مصدَرٌ لا يُعرفُ له فعلٌ، ومعناهُ: شدّةُ الشّرّ، والتّقبيحِ، وقد يُستعملُ على سبيل التّحسّرِ[2]، والهلاكُ وما يقرُبُ منهُ من سوءِ الحالةِ، ولأنَّهُ لا يُعْرَفُ لَهُ فِعْلٌ كانَ اسْمَ مَصْدَرٍ، وعومِلَ مُعامَلَةَ المَصادِرِ، يُنْصَبُ على المَفْعولِيةِ المُطْلَقَةِ ويُرْفَعُ لإفادَةِ معنى الثَّباتِ؛ فيقال: ويلٌ له، كقوله سلامٌ عليك، وفي قوله تعالى: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ "خُصَّ هَؤُلاءِ بالوَيْلِ؛ لأنَّ المَعْنَى: أنّهم يوَلْولونَ مِنْ عَذابٍ شَديدٍ، ويَصيحونَ مِنْهُ، ويَقولونَ: يا ويْلاهُ"[3]، فهي "كَلِمَةٌ تُقالُ لِلْعَذابِ والهَلَكَةِ"[4]، وفيها "تهديدٌ للكافرين، ووعيدٌ لهم بالعذابِ الشّديدِ، الذي يَنتظرُهم يومَ القيامة، مِن مالك المُلك، الذي إليه كلُّ شيء، وبيده كلُّ شيءٍ"[5].

الـويـلُ كـلـمـةُ وعـيـدٍ تُـقـالُ لإثـبـاتِ شـديـدِ العَذابِ وعظيمِ العِقابِ

غرَضُ تنكيرِ الوَيلِ:

تنكيرُ الوَيلِ في قوله تعالى: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ أفادَ النَّوعَ، فهو نوعٌ خاصٌّ منَ الويلِ لا يعرفُه النّاسُ في الدُّنيا، وبه يكونُ الويلُ المذكورُ ذا تهويلٍ عظيم، وتفخيمٍ لشأنِه، فهو ويلٌ غيرُ مسبوقٍ، وويلٌ غيرُ مدفوعٍ، وويلٌ غيرُ مهروبٍ منه، بتنكيرِه اكتسبَ جهالةً تُكسِبُه مزيدًا منَ التَّهويلِ والوَعيدِ.

جـهـلُ تفاصيلِ بعضِ الحَقائقِ يُكسِبُها تهويلًا وتعظيمًا

غرَضُ تقْديمِ المُسنَدِ إليه:

قُدِّمَ المُسنَدُ إليه في قوله تعالى: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْكَافِرِينَ﴾ على المُسنَدِ

للتَّشويقِ شأنٌ في رفْعِ المُـتردِّدِ وكـبْـحِ جِـمـاحِ المُتمرِّدِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/183.
(2) الراغب، تفسير الراغب الأصفهاني: 1/240، وابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/136.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 19/60، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/407.
(4) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 9/339.
(5) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 7/148.

للتَّشويقِ، فإنَّ ذكرَ الويلِ نكرةً يُرادُ منه تشويقُ السّامعِ لمعرفةِ ما بعدَه من خبرٍ، وهو ما يجعلُ ذكرَ الخبرِ واقعًا موقعَ التَّرهيبِ والوعيدِ لِما يُكسبُه السّياقُ من جلالِ الموقفِ وعظيمِ المآلِ.

بَلاغةُ التَّعبيرِ باسْمِ الفاعلِ:

رُسوخُ الكفرِ بالقلوبِ مَدْعاةٌ لرُسوِّ الويلِ فيها

تدلُّ صيغةُ اسْمِ الفاعلِ ﴿لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ على رُسوِّ الكفرِ في قلوبِهم، وثباتِه، وديمومتِه، وعلى استمساكِهم به، وعدمِ تَخلّيهم عنه، واسمُ الفاعلِ (الكافر) دليلٌ على أنّه ثابتٌ لا يَتزحزحُ عن تلك العقيدةِ، فكان لذلك وبذلك جديرًا بالويلِ الثّابتِ المقيمِ عليه، والعياذُ باللّه من حالِ أهلِ النّارِ.

دَلالةُ (أل) في ﴿لِّلْكَٰفِرِينَ﴾:

الكافرون همُ الذين بَقَوا في الظّلماتِ ليسوا بِخارجين منها

(أل) في ﴿لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ عهديّةٌ فـ"الكافِرونَ هُمُ المَعْهودونَ، وهم الَّذينَ لَم يَخْرُجوا مِنَ الظُّلُماتِ إلى النّورِ، ولا اتَّبَعوا صِراطَ العَزيزِ الحَميدِ، ولا انْتَفَعوا بِالكِتابِ الذي أُنْزِلَ لِإخْراجِهِم مِنَ الظُّلُماتِ إلى النّورِ"[1]، فهؤلاء لهم "عذابٌ شديدٌ سينزلُ بهم، فيَجعلُهم يَستغيثون دونَ أن يَجدوا من يُغيثُهم"[2].

معنَى حرْفِ الجرِّ ﴿مِنْ﴾:

بدءُ الويلِ عذابٌ شديدٌ يُهلِكُهم

دلَّ حرفُ الجرّ ﴿مِنْ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ على معنى الابتداءِ، فالويل يبدأُ من عذابٍ شديدٍ، فكيف بما بعدَه من أصنافِ العذابِ التي ستُلاقيهم، وفيه منَ التَّهويلِ ما لا يخفى، أي: هلاكًا ينجرُّ لهم منَ العذاب الشّديدِ الذي يلاقونَه وهو عذابُ النّارِ[3].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/183.
(2) طنطاوي، التفسير الوسيط: 7/511.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/183.

وجْهُ تخْصيص العَذابِ بشديدٍ:

عذابُ الكافرِ يومَ القيامةِ يَشدُّه ويوثِقُه؛ فلا يُمكنُه الفكاكُ

يقال: "شَيْءٌ شَديدٌ: بَيِّنُ الشِّدَّةِ بِالكَسْرِ، وشَدَّهُ: أَوْثَقَهُ يَشُدُّهُ، ويَشِدُّهُ بِالضَّمِّ والكَسْرِ"[1]، وشديدٌ صيغةُ مبالغةٍ على وزن فعيلٍ بمعنى فاعل، أي أنّ عذابَهم عذابٌ واثقٌ إيّاهم، يوثِقهم فلا يُفلتون، فتخْصيصُ وصْفِ العذابِ في قوله تعالى: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ بالشِّدَّة دون (أليم) أو (عظيم) أو (كبير) أكسبَ العذابَ معنًى ملائمًا للكفرةِ، فكما أنَّهم كانوا أشدّاءَ في كُفرِهم، فالعذابُ كذلك كان شديدًا عليهم من جنْسِ أعمالِهم، جزاءً وِفاقًا.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيّةُ:

الصّراطُ والطّريقُ والسّبيلُ:

"الصّراطُ هو الطّريقُ السّهلُ، قال الشّاعرُ:

خَشْوْنا أرضَهم بالخيلِ حتى *** تركناهُم أذلَّ منَ الصّراطِ

الصّراطُ الطّريقُ الطويلُ الواضحُ، والسّبيلُ يُستعملُ في المادّيات والمَعنويّاتِ، والطّريقُ يُستعملُ في المادّياتِ، وإذا أنّثَ ففي المَعنويّاتِ

وهو منَ الذَّلِّ خلافَ الصّعوبةِ، وليس منَ الذُّلِّ خلافَ العِزّ، والطّريقُ لا يقْتضي السّهولةَ، والسّبيلُ اسمٌ يقعُ على ما يقعُ عليه الطّريقُ وعلى ما لا يقعُ عليه الطّريقُ، تقول: سبيلُ اللّه وطريقُ اللّه، وتقول: سبيلُك أن تفعلَ كذا، ولا تقول: طريقُك أن تفعلَ به. ويُرادُ به سبيلُ ما يقصدُه؛ فيُضافُ إلى القاصدِ ويُرادُ به القصْدُ، وهو كالمحبّةِ في بابِه، والطّريقُ كالإرادةِ"[2].

ويُستعملُ السّبيلُ مع المعنويّات كابنِ السَّبيلِ، وسبيلِ اللّه، وسبيلِ الرّشد، ومع المادّياتِ، فيكونُ بمعنى الطّريقِ، بينما الطَّريقُ فالغالبُ عليه أنَّه يُستعملُ في المادّيات، إلّا إذا لحقَه التَّأنيثُ فيُستعملُ في المعنويّاتِ كالطّريقة المُثلى، وأمّا الصّراطُ فهو الطّريقُ الطّويلُ المُتّسعُ السّهلُ الواضحُ الذي يتبيّنُ فيه الإنسانُ معالمَ الهدايةِ والخيرِ

(1) الرازي، مختار الصحاح: (شدد).

(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 313.

والشّرِّ، وليس كلُّ طريقٍ طويلًا، وليس كلُّ طريقٍ واضحًا، ومن هنا اخْتيرَ في الآيةِ فإنَّ صراطَ اللّه واضحٌ يسيرٌ.

العذابُ والعقوبةُ:

العذابُ هو (الإيجاعُ الشّديدُ)[1]، وعقابٌ ونكالٌ، والعذابان: عذابُ القبرِ وعذابُ جَهنَّمَ"[2].

العـذابُ مُطلقُ الإيـجـاعِ أمّـا الـعـقـوبـةُ فمجازاةٌ على إثرِ تَجاوُزٍ

و"أُعذِبَ الحوضُ: نُزِعَ ما فيه منَ العذَب؛ أي: الكَدَر، وبذلك عذُب الحوضُ - كَكَرُم - صار مستساغًا، والعذْبُ منَ الشّراب والطّعام: كلُّ مُستساغٍ، ومنه: عَذْبٌ: ﴿هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ﴾ [الفرقان: 53]، أي: حُلوٌ شديدُ العذوبةِ.

والتّعذيبُ من معنى الإزالةِ في التّفعيل، فيكونُ: عذَّبه: أزالَ عَذْبَ حياتِه، كمرّضَهُ: أزال مرضَه. عذابَها: ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ۝٦٥﴾ [الفرقان: 65] أي: لازمًا أو مُمتدًّا كلزومِ الغريمِ، عَذَّبْناها ﴿وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ۝٨﴾ [الطلاق: 8] أي: منكَرًا شنيعًا في الآخرة"[3].

أمّا العقوبةُ فمُجازاةٌ على إثْرِ تجاوُزٍ، فهي: "ما يَلحقُ الإنسانَ منَ المحنةِ بعد الذَّنْبِ في الدُّنيا، ولكلّ ذنْبٍ عقوبةٌ بدنيّةٌ، جنائيّةٌ"[4]، و"العقابُ الذي ينالُ فاعلَ الفعل في القلب إنّما هو أثرٌ أعقَبَ الفعلَ، والاسمُ: العقوبةُ"[5].

وعليه فإنّ العذابَ قد يكونُ مَسبوقًا بذنْبٍ، وقد لا يكونُ، والعذابُ يتضمَّنُ دائمًا ملمحَ الشّدّةِ، حتى وإنْ لم يوصَفْ بالشّديدِ أوِ الأليم ونحوِ ذلك، أمّا العقابُ فقد يكونُ يسيرًا؛ لارتباطِ العقوبةِ بالذّنْب، فإذا عَظُم الذّنْبُ عظُمتِ العقوبةُ، وإذا صَغُر كان العقابُ على قدْرِه،

(1) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: 3/42.
(2) مختار، معجم اللغة العربية المعاصرة: (عذب).
(3) الجمل، معجم وتفسير لغوي لكلمات القرآن: (عذب).
(4) مختار، معجم اللغة العربية المعاصرة: (عقب).
(5) الجمل، معجم وتفسير لغوي لكلمات القرآن: (عقب).

ويوضّحُ ذلك بجلاءٍ قولُ اللّه: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾ [النحل: 126] ولشدّةِ عذابِ الكافرين استحقاقًا وأهليّةً ناسبَ التَّعبيرُ بلفْظِ العذابِ دونَ العقابِ.

الويلُ والويحُ:

خَسروا رحمةَ اللّه تعالى باستِحقاقِهمُ العذابَ

لفظا (الويح)، و(الويل) كلاهما للتّعجّبِ والتّوجُّع، لكنّ (ويح) تُستعملُ لمن وقعَ في مَهْلكةٍ لا يَستحقُّها؛ فيُرثَى له ويُترحّمُ عليه، أمّا (ويل) فتستعملُ للذي يستحقُّها ولا يُترحّمُ عليه[1]. والكافرُ مُستحقٌّ للعذابِ ولا يُترحّمُ عليه ولذلك اخْتير في الآية الكريمةِ تهديدًا بشدّةِ العذاب الذي سَيُلاقونَه.

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/136.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الرابع والعشرون، سورة الرّعد من الآية 16 إلى سورة إبراهيم الآية 25
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الرابع والعشرون، سورة الرّعد من الآية 16 إلى سورة إبراهيم الآية 25
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 24 ، 808 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-21-0
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 24 : المجلد الرابع والعشرون، سورة الرّعد من الآية 16 إلى سورة إبراهيم الآية 25.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-21-0
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-1718375 بتاريخ 2024/02/19م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»